ملامح من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة خلال القرن العاشر الهجري

في ضوء كتابي بلوغ القرى للعز بن فهد ونيل المنى لجار الله بن فهد

د. عواطف بنت محمد نواب
قسم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - كلية إعداد المعلمات - مكة المكرمة

انفرد أهل مكة المكرمة بعادات(١) وتقاليد(٢) ممتزجة من الشعوب الإسلامية المختلفة، لما لها من مكانة؛ إذ يقصدها سنوياً آلاف المسلمين لأداء فريضة الحج. وهؤلاء يحملون عادات وتقاليد موطنهم. ومنهم من يبقى للمجاورة التي قد تطول أو تقصر، ومنهم من يستوطنها. فهذا أدى إلى امتزاج ما حملوه معهم مع ما وجد لدى أهل مكة من عادات وتقاليد، فأفرز هذا نوعاً خاصاً من العادات اختص به أهل مكة المكرمة.

ويعود سبب اختياري للقرن العاشر الهجري إلى أنه الفاصل بين العصر الوسيط والحديث، كما تم الاعتماد بشكل أساسي على كتابين أُلِّفا في هذا القرن هما:

---

(١) العادات: أنماط السلوك الجمعي التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتستمر فترة طويلة حتى تثبت وتستقر، وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة بها. انظر: بدوي، أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية إنجليزي - فرنسي - عربي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨م، ص٩٤.

(٢) التقاليد: عناصر الثقافة التي تنتقل من جيل إلى آخر؛ أي: أنها عبارة عن قواعد السلوك الخاصة بجماعة أو طائفة معينة، والتي يتناقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل. وتتميز التقاليد عن العادات في أن الناس يشعرون نحو التقاليد بقدر كبير من التقديس، ولا يرون أنه من الممكن العدول عنها، المرجع السابق، ص٤٢٨.

أولاً: كتاب بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، للعز عبدالعزيز بن فهد المتوفى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م. وهو محقق من قبل عبدالرحمن بن حسين أبو الخيور، لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى، عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م (لم ينشر، وهي النسخة التي تم الاعتماد عليها في هذا البحث، أما الآن فالكتاب مطبوع من قبل دار القاهرة، عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).

ثانياً: كتاب نيل المُنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، لجار الله بن العز بن النجم بن فهد المكي المتوفى عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م. وهو محقق من قبل الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة، عام ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

ولا يخفى على المتصفح للكتابين أهميتهما، خاصة في الجانب الاجتماعي، فالمؤلفان رصدا حياة أهل مكة يوماً بيوم، لذا وجد بهما جُل المظاهر الحضارية من سلوكيات وعادات اجتماعية ودينية وعلمية واقتصادية وسياسية، بل وحتى أنواع الأطعمة وغيرها.

وسيقتصر على بعض الصفحات عند الإحالة للمصدر للتدليل على إحدى العادات لكثرتها في المؤلفين.

تميز أهل مكة المكرمة بأشكال عدة من العادات: اجتماعية ودينية وعلمية واقتصادية وسياسية، منها ما هو حسن ومنها ما هو سيء، منها ما يأخذ الطابع الموسمي، ومنها ما يفرضه وقت حصول الحدث.

والجدير بالذكر أن هذه العادات والتقاليد مثلت لديهم جزءاً من حياتهم اليومية، ونشأت تلقائياً، ومارسوها دون تكلف، وكأنها إحدى واجباتهم اللازمة، إذ تعد جزءاً من تراثهم الاجتماعي غير المكتوب، وثمة علماء اجتماع يفرقون بين العادات والتقاليد على أساس أن العادة تتعلق بالسلوك الخاص بينما التقليد يتعلق بسلوك المجتمع في كليته، فحيث يشترك المجتمع أو الدولة نجد تقاليد، وحيث لا تشترك

نجد عادات، فالاحتفال بالزواج عادة والاحتفال بالأعياد تقليد(٣). وعليه استخدم مصطلح العادات والتقاليد على الممارسات الاجتماعية التي رصدت في هذا البحث.

ولا شك أن هناك عوامل مؤثرة في عادات وتقاليد أهل الأمصار، سواء كانت بيئية أو مناخية أو اقتصادية أو جغرافية، ولم تخرج مكة عن هذه القاعدة.

العوامل المؤثرة في العادات المكية:

أولاً: المسجد الحرام

يؤم مكة المكرمة كل عام آلاف المسلمين من جميع أصقاع المعمورة لأداء فريضة الحج، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٤). ولا ريب أن كل قادم منهم يحمل معه لغة وزياً وعادات وتقاليد وأفكار موطنه، لتصب جميعها بمكة المكرمة. وبهذا تكون كأنما سيق لها أهل الدنيا، فعرف أهلها نظائرهم من البلدان، بل وجد بها من يتكلم لغاتهم(٥).

وقد وصف المستشرق سنوك مكة - عندما كان بها - ببلد الجاليات المختلفة، التي اندمجت مع المجتمع المكي(٦).

---

(٣) سعفان، حسن شحاته: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٩، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٤) سورة الحج، آية ٢٧.

(٥) المصري، الحاج يونس: رحلات فارتيما (Vartema)، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٥٩؛ ابن فهد، جار الله محمد بن عبدالعزيز بن النجم عمر: كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة والمدينة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٦٧٩؛ العياشي، أبو سالم عبدالله: ماء الموائد، مخطوط بالخزانة الحمزاوية، رقم١٨٢، المغرب، ص٣٧٠.

(٦) هورخرونيه، سنوك (Snouk- Horgronje): صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة علي عودة الشيوخ، صياغة وتعليق محمد محمود السرياني، ومعراج نواب مرزا، مراجعة محمد إبراهيم علي، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٣١٦.

ثانياً: وجود الأماكن المأثورة

لأن مكة المكرمة مهد الإسلام، ومهبط القرآن الكريم، ظهرت بها عادات ارتبطت بهذه الأماكن(٧).

ثالثاً: التنوع السكاني

بلغ عدد سكان مكة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (أربعة عشر ألف شخص). من واقع السجلات التي تدون فيها أسماء أهلها، والتي بموجبها توزع الصدقات عليهم، وهذه السجلات تضم أسماء المجاورين والغرباء من الجنسيات المختلفة؛ مثل: الهندي، والمصري، والشامي، والمغربي، والجاوي، والحضرمي، واليمني، والتركي، والفارسي، والحبشي.

وأصدق مثال على ذلك ما ذكره البتنوني في رحلته عن اختلاط الأجناس بها، إما بالمصاهرة أو المعاشرة(٨). والذي انعكس على دخول ألفاظ أجنبية من اللغات المختلفة، وكذلك اللباس، بل وحتى الطبائع الأخلاقية والمأكل(٩).

رابعاً: المجاورون

تعددت أسباب المجاورة بمكة، ولعل الجانب الديني يحتل الصدارة، ومن ثم طلب العلم، والتماس الرزق، وكلاهما يقتضي من صاحبه

---

(٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالرحمن بن حسين أبو الخيور، رسالة ماجستير لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى - كلية الشريعة - عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج١، القسم٣، ص١٦٤-١٦٥، ١٨٣، ٣٣٩. جار الله: نيل المنى، ج١، ص١٢١، ٣١٥، ج٢، ص٥٢٥-٥٢٦، ٧٦٥؛ المكي، أحمد بن محمد: إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تحقيق الحافظ غلام مصطفى، دار الصحوة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٢٠-٢٢٧.

(٨) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٧٧؛ البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني، خديو مصر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ص١٢١.

(٩) سنوك: صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص٣١٦-٣١٧.

التريث والمكوث اللذين قد يتحولان إلى الاستيطان والإقامة؛ فنشأت ظاهرة المجاورة، وتمثلت في بروز شريحة اجتماعية بها عُرف أفرادها باسم المجاورين، ومثلوا جزءاً من مناخها الاجتماعي بما حملوه معهم من عادات بلدانهم ومارسوها دون أن تجد معارضة من أهل مكة(١٠). وكأن ما يقومون به تأكيد لقواعد اجتماعية لأمة واحدة انمحت بينها الفوارق ومكان تطبيقها مكة. وإن كانت تحدث أحياناً عادات لا تلقى القبول، بل تواجه بالاستنكار أيضاً ولكن تتم ممارستها(١١).

فمكة كانت تقوم بها سبل التعايش الحضاري في مجالاته المختلفة، وانصهر الجميع في سلوك اجتماعي نتج عنه مخالطة نفسية، وتبادل شعوري، وتعايش فكري، واندماج حضاري، وتناصح في أمور الدين والدنيا(١٢).

مقتطفات اجتماعية لأهل مكة المكرمة

عاش أهل مكة مظاهر حياتيه مفعمة بسلوكيات وعادات، منها ما له ارتباط بالجانب الديني والعلمي، وأخرى لها ارتباط بالجانب الاقتصادي، ومنها ما يتعلق بالجانب السياسي.

١ - العادات الاجتماعية:

أ - الزواج:

يعد الزواج من المناسبات التي يحرص فيها الجميع على إظهار الفرح والاحتفال بها كل حسب طاقته، وهي عادة ما تستمر سبعة

---

(١٠) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٥٧-٢٥٨، ٤٩٨؛ ج٢، ٦٢٧، ٦٥٥، ٧١٩؛ الوراكلي، حسن: المجاورون الأندلسيون (مساهمتهم في تشكيل صورة مكة العالمة)، بحث مقدم لمؤتمر الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج عام ١٤٢٣هـ. بعنوان (مكة المكرمة العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي) خلال الفترة من ٣-٥ ذي الحجة ١٤٢٣هـ/الموافق ٤-٦ فبراير ٢٠٠٣م، ص٢.

(١١) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٨٠؛ ج٢، ص٦٢٧، ٦٥٥.

(١٢) الريسوني، قطب: مكة والحج، درس في التسامح والانفتاح والوحدة، بحث مقدم إلى مؤتمر الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج عام ١٤٢٣هـ، ص١٠.

أيام، إذ يخصص اليوم الأول لإرسال المؤذنة والمؤذن أو أكثر للدعوة لهذه المناسبة، والبدء بتهيئة المكان المراد إقامة العُرس فيه من نصب أخشاب، وتغطيتها بالأقمشة المزركشة المسماة (التيازير)(١٣)، وإشعال الشموع والثريات والقناديل للإنارة، وتفرش الأرض بالسجاجيد.

ويخصص اليوم الثاني لعقد القِران، ويكون إما في منزل والد العروس بإحدى قاعاته الكبيرة أو سطحه، أو في الأحواش والباحات القريبة منه، بعد وضع الزينة لها، ولكن في أغلب الأحيان يعقد القِران في أحد أروقة المسجد الحرام أو فوق سطحه، وتسرج لذلك فوانيس وشموع وثريات الحرم، ويشارك الجميع بالحضور من القضاة والمشايخ والفقهاء والتجار وباش مكة(١٤) والعامة بحسب المركز الاجتماعي لأهل العروس. وبعد الانتهاء من العقد يسقى الجميع السُّكَّر المذاب، وشراب الشعير (السوبيا)(١٥)، ويقدم البخور، ويُرَش الحاضرون بالعنبر وماء الورد، ويختم بقراءة المقرئين. أما إذا كان العقد لشخصية مهمة فتحضر النساء أيضاً، ويخصص لهن رواق يضاء بشموع الحرم(١٦).

---

(١٣) ما تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، وهي التي تستخدم إزاراً للخيام على شكل حائط يحيط بالخيمة، (أَزَرَ) به الشيء: أحاط. انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٤، ص١٦، وبهذا تكون (كلمة التيازير) الإحاطة بالمكان لتحديده وستره.

(١٤) الباش: بمعنى الرأس وهو اسم لوظيفة في العصر المملوكي. وأصبحت في أواخر العصر المملوكي لقب لمتولي الوظائف العسكرية العالية المكانة. انظر الباشا، حسن: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م، ج١، ص٢٩٣؛ عطية الله، أحمد: القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، د. ت، ج١، ص٢٥٦؛ الخطيب، مصطفى عبدالكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، د. ت، ص٦٥.

(١٥) شراب شعبي يصنع من الشعير بعد جرشه وغمره بالماء لمدة يوم في أواني مغلقة، ثم يصفى ويحلى بالسكر ويشرب بارداً، وهو من المشروبات المكية التي ما تزال معروفة إلى اليوم.

(١٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٨١-٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٨١-٢٨٢، ٣٥٠، ٣٥٣، ٤٣٧؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص١٢٠، ١٧١، ٣٠٠، ٣٩٠.

أما اليوم الثالث فتنصب (الفازة)(١٧)، وهي مكان مرتفع يخصص لجلوس أهل العريس، تغطى أرضيتها بالسجاد، وهو يشبه خشبة المسرح. ويتم في هذا اليوم لعب الرجال في المكان المخصص لهم، وكذلك النساء في المكان المخصص لهن. وعادة ما يصاحب ذلك كله سواء عند الرجال أو النساء، وجود المغنين والمغنيات ومعهم آلاتهم الموسيقية التي منها الطبل والربابة، كما تنشد القصائد الشعرية في مدح خصال العروسين ومناقبهم(١٨).

وتسمى الليلة الرابعة ليلة (الغمرة)(١٩)، ويعمل للعريس زفة من منزله إلى منزل عروسه، يحضرها المدعوون علاوة على أهله وأقاربه وأصدقائه، تتقدمهم الشموع الكبار ذوات الأشكال المختلفة والقناديل، والتي تتم استعارتها من مخصصات إنارة الحرم. وعند وصوله إلى منزل عروسه يعطيها مالاً لشراء ما تحتاجه من الحلي الذهبية(٢٠).

وفي الليلة الخامسة التي يطلق عليها ليلة (الشراع)(٢١)، ويحضرها القضاة والفقهاء، والتجار والعامة من الناس، ويتم فيها دخول الزوج على زوجته في بيت أهلها، ويبقى لديها إن كانت ثيباً ثلاثة أيام، وإن كانت بكراً سبعة أيام. ثم بعدها يحملها في زفة إلى

---

(١٧) الفازة: مكان بين موضعين يبنى بالخرق، ويظلل بالأعمدة. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٩٣. ونرى الأسماء التي أطلقها المكيون كلمات عربية صحيحة تدل على الغرض الذي من أجله استخدمت، وهي ما تزال إلى اليوم، ولكن باسم الكوشة.

(١٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٩٥، ٢٨١-٢٨٢، ٣٥٩-٣٦٠، ٣٨٥؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٦٤-٦٥، ٧٠-٧١.

(١٩) الغُمرة: تمر ولبن يطلى به وجه المرأة ويداها حتى ترق بشرتها. والغُمار: الزحمة والكثرة. وغُمَّر: لم يجرب الأمور. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٠-٣٢. وما زالت معروفة حتى الآن عند أهل مكة.

(٢٠) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٥٩-٣٨٦.

(٢١) شَرَعَ وشُرُوعاً؛ أي: دخلت وشَرَعْتُ في الأمر خضت، والشِّرعة ما سن الله من الدين، وشرّعه ابتداء الطريق، ويَشرع أخذ، والشارعة التي دنت وقرُبت من الناس، والشرَاع العنق، وأشرع الشيء رفعه جداً. ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص١٧٧-١٧٨، وتسمى هذه الليلة الآن بليلة الدخلة.

منزله بالمغاني والمطربين، ويعمل لها وليمة تحوي العديد من الأطعمة التي كانت سائدة في تلك الفترة، مثل: الحموية، والهريسة بالفستق، والمعمول، والشواء، ولبن الخردل، والدباء، وغيرها.

أما صبيحة اليوم السادس فيقسم العريس أموالاً على أهل عروسه، ويتقاطر المهنئون في هذا اليوم واليوم التالي للتهنئة(٢٢).

وفي كل ليلة وكل صبيحة من هذه الأيام السبعة تمد الأسمطة(٢٣) بأنواع الأطعمة للرجال والنساء على السواء، وإن اعتادوا أن يأكل الرجال أولاً، ثم تمد للنساء أسمطة بعدهم(٢٤).

كما اعتادوا إرسال داعين وداعيات للعُرس يسمون (المؤذنة - المؤذن) من قبل أهل الزوج والزوجة، ويتم اللصق(٢٥) عليهم (الرفد)، وهي عبارة عن منح بعض النقود، وفي حقيقتها إعانة على تكاليف الزواج، وتكون على قدر معطيها وطاقته. وهي عادة دأبوا عليها، ولا يتخلف عنها أحد، وتدل على تكافلهم وإحساسهم بضرورة الإسهام في هذه المصاريف التي لا يستطيع أهل العُرس القيام بها وحدهم.

كما ينشر منديل أثناء العُرس في الليالي الرئيسة توضع فيه هدايا مالية لكل من حضر، وتسمى اللصق أيضاً(٢٦). وعادة ما يصاحب

---

(٢٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٨٥، ٣٦٠، ٣٨٦؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٤٨-٤٩، ٥٨-٥٩، ٦٤-٦٥، ٧٠- ٧١.

(٢٣) الأسمطة: الموائد التي تحوي ما لا يقل عن ألف صحن من أنواع الطعام والحلوى، وتمتاز بتزيين أطراف المائدة بأبراج من الحلوى للزينة. انظر: رفيع، محمد عمر: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، نادي مكة الثقافي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٦٠-٦١. عندما ذكر العز وجار الله كلمة الأسمطة ليس قصدهما تحديد عدد الأطباق بالألف أو أكثر، ولكن كناية عن كثرة الأطباق التي تقدم، فليس أهل مكة المكرمة كلهم أثرياء يستطيعون القيام بذلك. لذا وجب التنويه.

(٢٤) جارالله: نيل المنى، ج١، ص٦٢، ٣٩٤، ج٢، ص ٨٠٤.

(٢٥) اللصق: تغيرت هذه الكلمة الآن إلى كلمة (الرفد)، وهي من العادات الحسنة التي ما تزال إلى الآن وإن تغيرت أيضاً طريقة إعطائها لأهل العُرس، إذ تعطى مباشرة مع التهنئة.

(٢٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٨٤، ٣٥٩، ٣٨٦؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٥٨، ٦٠، ٦٢، ٣٩٤؛ ج٢، ٨٠٤.

انتهاء ليالي العُرس عمل مولد تيمناً بصاحبه، وبحضور الجميع أيضاً(٢٧).

وبالرغم من الترف والبذخ المصاحب لحفلات الزواج هذه وجد من أهل مكة من يقتصر على العقد والدخول في يومه ويحمد له ذلك(٢٨)، إذ ليس كل أهل مكة أثرياء.

ومن العادات المحمودة في مثل هذه الأعراس، إعارة الحلي الذهبية لأهل العروس من قبل نساء امتلكن هذه الحلي وهن معروفات لجميع أهل مكة(٢٩).

أما الأعاجم القاطنون بمكة فلا يختلف احتفالهم بالعُرس كثيراً عن أهل مكة إلا في وضع جهاز العروس أمام المدعوين لمشاهدته، ودخول الزوج على زوجته في بيته، وليس بيت أهل زوجته في نهاية الاحتفال. كما يتم المزج والجمع بين أطعمة أهل مكة والأطعمة العجمية في ولائم الأعراس.

ووجدت لدى أهل مكة عادة تزويج أولادهم وبناتهم صغاراً، وأحياناً يكون الزوج أصغر من زوجته والعكس في مثل زواج الصغار هذا(٣٠).

---

(٢٧) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٨٤، إقامة الموالد من البدع التي لا يجوز فعلها؛ لما يصاحبها من أمور مخالفة للشرع.

(٢٨) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٢٨٣.

(٢٩) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٣٠، كما تعار أواني الأطعمة من صحون وأكواب وغيرها، مغربي، محمد علي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، الكتاب العربي السعودي، جدة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، تهامة، ص٢٢٥.

(٣٠) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٤٢-٤٤؛ ج٢، ص٦٥٥-٦٥٦، ٧١٩، ٧٤٤. ولمزيد من المعلومات والمقارنة حول عادة الأعراس قديماً وحديثاً. انظر: رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ص٨١-٩٣؛ مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص٢٢-٤٧. وفي عادة زواج الأعاجم القاطنين بمكة دليل على الانصهار والاندماج مع سكانها الآخرين، وممارستهم لعاداتهم بحرية.

ب - الولادة:

يحتفي والد المولود به منذ اليوم الأول لولادته فتصنع حلوى الزلابية(٣١) والعسل، وتفرق على الجيران والأهل، وفي اليوم السابع تعمل العقيقة بلحم وثريد، وتقسم على الأقرباء والفقراء، ويجتمع في هذا اليوم النساء والأولاد مظهرين السرور بمقدمه(٣٢).

ج - الختان(٣٣):

غالباً ما تحدث المبالغة في احتفالات ختان الأولاد، التي تتفاوت في مستواها وما يقدم فيها حسب المستوى الاجتماعي لأهل الطفل المختون، وهذه المناسبة يستمر الاحتفال بها سبعة أيام، وفي ختامها يختن الصبي على يد المزين (الحلاق). ويبدأ الاحتفال بخروج المؤذن والمؤذنة للدعوة لهذه المناسبة، وفيها يلصق بالأموال أيضاً.

وفي اليوم التالي يغتسل الصبي بماء زمزم، ويزف من باب السويقة(٣٤) أو المروة أو الصفا إلى منزله بالحناء، مصحوباً بالشموع ذوات الأشكال المختلفة، والتي غالباً ما يستعمل فيها شمع الحرم، ويكون الصبي

---

(٣١) الزلابية: نوع من العجائن المقلية الخفيفة والهشة جداً، وطريقة عملها: يفرد العجين بحيث يصبح قرصاً كبيراً مستدير الشكل، يقلى بعدها في إناء كبير مملوء بالزيت، وتخرج بعد ذلك، وتقدم مع السكر المذاب المسمى (الشيرة) أو الجبن المالح وأحياناً السكر الناعم. انظر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص٥٧. مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص ٢٢٦.

(٣٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٤٥-٢٥٣؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٤٨، ج٢، ص٦٤٧، ٦٧١، ٧٥١، ولمزيد من المعلومات والمقارنة انظر: رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص٩٢-٩٣.

(٣٣) انظر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص٩٤-٩٥ (للمقارنة).

(٣٤) باب سويقة: يذكر ابن ظهيرة أن بشق الجانب الشمالي من المسجد الحرام خمسة أبواب بستة منافذ. الأول: باب الدريبة بمنفذ واحد على يمين الداخل إلى المسجد من باب السلام، والثاني: باب سويقة في صدر زيادة دار الندوة بمنفذين. وسمي بدريبة؛ لأن به دربًا صغيرًا ينفذ إلى سويقة. بينما المكي يشير إلى أنه بثلاثة منافذ بصدر زيادة دار الندوة. (المنفذ هو الطريق أو الممر). أما الطبري فلا يزيد على أنه يعرف بباب دريبة أحد أبواب المسجد الحرام بمنفذ واحد. انظر: ابن ظهيرة، جمال الدين محمد جار الله: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، المكتبة الشعبية، بيروت - لبنان، ط٤، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٣٥. المكي، إخبار الكرام، ص١٩٨؛ الطبري، علي بن عبدالقادر: الأرج المسكي في التاريخ =

معتلياً فرساً مزركشاً، ولابساً حلة حسنة وعمامة، ومعه عدد من الصبيان راكبين الخيول، ويمشي معهم القضاة والفقهاء، وباش مكة التركي والأتراك والتجار، وحكام مكة وجدة، وجمع من الناس في مشهد يفيض بالفرح والسرور، وعند وصول الصبي إلى منزله يمد النساء سماطاً مملوءًا بالحلوى والفتوت، وهو مشبك مضروب ولوزية، وفي الصباح التالي تفرق الحلوى. وفي اليوم الثالث تعمل زفة أخرى من باب إبراهيم(٣٥)، يشترك فيها المغنون والمطربون، وتنصب ستارة أمام بيت الصبي يمد فيها السماط.

وفي الليلة الأخيرة من الاحتفال بعد زف الصبي كالعادة، يختن ومعه بعض الصبية الذين لا يستطيع أهلهم إقامة مثل هذه الاحتفالات لهم، ويلصق الحاضرون أيضاً لأهل الصبي، ويمد سماط في الصباح يحتوي على العديد من الأطعمة الفاخرة، مثل: هريسة الفستق، المامونية، السكب، الحموية، الرغيف الأسيوطي، الجرجانية، الخرفان، الرز الحلو (ربما يكون الرز باللبن)، الضلوع المشوية، المبشورات. ولا يتخلف أحد في ختام الحفل، ثم تفرق الأطعمة الباقية على الحاضرين(٣٦)، ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أن هذه الاحتفالات بهذا الشكل كانت قاصرة على أبناء الطبقة الغنية.

= المكي وتراجم الملوك والخلفاء؛ إشراف سعيد عبدالفتاح، تحقيق وتقديم أحمد الجمال، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٩٨؛ الكردي، محمد طاهر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، دار خضر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٤، ص٤٢٣.

(٣٥) باب إبراهيم: أحد أبواب المسجد الحرام، وسمي بذلك برجل خياط كان عنده. ويقع في الجانب الغربي من المسجد. ابن ظهير: الجامع اللطيف، ص١٣٥-١٣٦؛ المكي: إخبار الكرام، ص١٩٩؛ الكردي: التاريخ القويم، ج٤، ص ٤٢٣.

(٣٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣١٤، ٣٥١-٣٥٣، ٣٥٧، ٣٦٣-٣٦٤، ٣٨٦، ٤١١، ٤٤٤ وغيرها، جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٩٩، ٤٩١. بعض أسماء الأطعمة لا تعرف اليوم، وربما تنسب إلى البلدان التي أخذت منها، مثل: الحموية من حماة، والجرجانية من جرجان وهكذا، وإن كنا لا نعرف للأسف مكوناتها ولا طريقة عملها، إذ لا نعلم إلا أسماءها فقط، وإن كان ذكرها من ضمن المأكولات في هذه الاحتفالات دليلاً على أنها ربما تكون من الأطعمة الفاخرة التي تعلم أهل مكة صنعها من سكان الأقطار المستقرين بها.

د - المأتم(٣٧):

درج بنو ظهيرة على الصلاة على موتاهم عند الحجر الأسود، والطبريون عند المقام. أما عامة أهل مكة والوافدون فيصلون على موتاهم عند باب الكعبة المشرفة(٣٨).

وعند موت عالم أو قاض أو شريف أو شخص ذي شأن ينادي رئيس المؤذنين للصلاة عليه من فوق قبة زمزم مع ذكر محمود خصاله وجميل صفاته(٣٩)، ويكون بذلك إعلاناً عن وفاته. فيخرج الجميع لتشييع جنازته إلى مقابر المعلاة.

وأحياناً تنشد المراثي الشعرية فوق قبره، ويعمل له ختم بالمعلاة والمسجد الحرام، حيث تقسم الأرباع على المقرئين للختم، وغالباً ما يختم القرآن عليه بعد خمسة أو سبعة أيام، وأحياناً ثلاثة(٤٠).

---

(٣٧) إن ما ذكره العز وجار الله استمر العمل به فترة طويلة من الزمن، وقد انقطع بعضه، وبقي بعضه الآخر يعمل به إلى الآن. انظر المغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص٤٨-٥٢.

(٣٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٤٦، ١٣٧؛ جار الله: نيل المنى، ج٢، ص٦٩٩، ٧١٤.

(٣٩) يبدو أنهم أخذوا هذه العادة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض". ابن حجر، أحمد بن علي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، رتب كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، أخرجه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د. ت، ج٣، ص٢٨٨- ٢٨٩، كتاب الجنائز، حديث رقم١٣٦٧. أما الآن فيتم الإعلان عن وفاة الشخصيات المهمة في الصحف التي تفرد بعض صفحاتها لذكر جميل صفاتهم. وهكذا نرى أن التغيير في العادات المكية يتم وفق مقتضيات العصر، فما كان يناسب القرن العاشر أصبح الآن لا يناسب القرن الخامس عشر الهجري بما استجد من وسائل إعلان حديثة.

(٤٠) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٢١، ٢٢٩، ٢٨٥، ٣٠٩، ٣٢٩، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤١٦، جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٠٧، وما تزال عادة قراءة القرآن الكريم بعد وفاة الميت إلى الآن مع تغير في المكان حيث يتم ذلك في بيت المتوفى في الليالي الثلاثة الأولى التالية لوفاته فقط.

واعتادوا عمل مدفن خاص لكل أسرة، لدفن أفرادها فيه، بل ووجد من يشيد القباب(٤١) على قبره. كما حرصوا على حمل من يتوفى خارج مكة من أهلها ليدفن فيها، ومنهم من يقوم باستئجار البواكي للبكاء على قبر ميتهم!(٤٢).

ودرجوا على عادة ختم بيت المتوفى، إن لم يكن له وارث أو كان أهله غائبين، أو لديه أولاد صغار، حرصاً منهم على ضمان حقوقهم وإعطاء كل ذي حق حقه. وإذا شعر الشخص بدنو أجله أقام وصياً، وإن وافاه أجله قبل ذلك يقيم القاضي وصياً من طرفه. وربما تقوم المرأة وصية على أولادها وتركة زوجها. وتباع تركة الميت، وتقسم بين الورثة إن لم يكن لديه صغار. أما إذا توفي شخص ذو شأن من موظفي الدولة؛ فتحصر تركته، ويبلغ أمرها سلطان مصر للبت فيها(٤٣).

ومما سبق نرى مغالاة أهل مكة في إظهار أفراحهم وأحزانهم مولعين بتكريس جهدهم لحياتهم الاجتماعية، فهم كرماء لدرجة الإسراف، وقد وصفهم (سنوك) بقوله: "يعيشون من أجل الدنيا والدين معاً"(٤٤). فمناسباتهم الاجتماعية ذات الطابع الاحتفالي تمتد من بعد سفر الحجاج، وإلى

نرى مغالاة أهل مكة في إظهار أفراحهم وأحزانهم مولعين بتكريس جهدهم لحياتهم الاجتماعية

---

(٤١) بناء القباب من الأمور التي نهى النبي ﷺ عنها، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور، أو يبنى عليها، أو يجلس عليها أحد". النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي: سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشيته الإمام السندي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، ج٢، جزء٤، ص٨٧، كتاب الجنائز، باب البناء على القبر.

(٤٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٥٤؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٣٠.

(٤٣) العز: بلوغ القرى، ج١، ص٥٣، ٥٥، ٦٨، ١٩٥، ٣١٢، ٣٩١، ٣٩٨، ٤٣٨. ويبدو أنها من العادات التي استندت على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

(٤٤) هورخرونيه: صفحات من تاريخ مكة، ج١، ص٣٧٧.

قرب حلول شهر ذي الحجة التالي خاصة وأن أغلبهم يتعيشون على موسم الحج، إذ بمجرد انتهائه يتوقف نشاطهم العملي إلا من امتهن منهم التجارة. لذا ينصرفون كلياً إلى حياتهم الاجتماعية التي يجدون الوقت رحباً يمتد لأشهر عدة فبرزوا كثيراً في هذا الجانب.

هـ - عاداتهم في مواجهة الحر:

النوم فوق الأسطح في أشهر الحر:

لشدة الحر في أشهر الصيف الطويلة ينام أهلها على أسطح منازلهم، ويغطون أجسامهم بملاءات بللت بالماء، التماساً لنسمات باردة، كما اعتادوا على وضع دكاك بجوار أبواب دورهم للجلوس عليها، بعد رش الطريق بالماء لتهدئة الأتربة وطلباً لبرودة الهواء(٤٥).

التصييف بالطائف وما حولها من الأودية:

نعمت الطائف بموقع مرتفع ساعد على اعتدال مناخها، إضافة إلى خصوبة أرضها، ووفرة مياهها، ولقربها من مكة ارتبطت معها ارتباطاً اجتماعياً واقتصادياً منذ القدم(٤٦). فكانت المكان الأثير للتصييف بها هرباً من حر مكة في أشهر الصيف. وامتلك بها أغنياء مكة الدور والضياع والبساتين(٤٧)، وتبعاً لذلك كانت إقامتهم بها قد تطول أو تقصر لإدارة أملاكهم ورعايتها، ولم يقتصر التصييف على الطائف فقط، بل شمل العديد من الأودية القريبة من مكة، مثل:

---

(٤٥) يوسف، الحاج: رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٤٩.

(٤٦) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٤٧) العبيدي، عبدالجبار منسي: الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٧، ٤٩، ٥٨-٥٩، ٦١. وهذه العادة ما تزال إلى اليوم مروراً بالقرون بعد القرن العاشر. انظر العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٤؛ البركاتي، شرف بن عبدالمحسن: الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة المكرمة الشريف حسين باشا وأعماله في محاربة الإدريسي مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت، ط٢، د. ت، ص١٤٧.

الهدا(٤٨)، وأرض حسان(٤٩)، وأرض خالد(٥٠)، ونخلة الشامية(٥١)، وكانت هذه العادة قاصرة على القادرين من أهل مكة.

و - المحافظة على النظافة في الطرقات والمسجد الحرام:

كانت الطرقات المفضية إلى أبواب المسجد الحرام تخص بالنظافة، فغالباً ما ينادي نائب جدة الأهالي بتنظيفها، وكذلك أبواب المسجد الحرام، ويعطي القائمين على النظافة نقوداً لقاء عملهم. ولشدة حرصهم على صون المسجد الحرام من دخول الكلاب والدواب دأبوا على قفل أبوابه ليلاً، وترك بعضها مفتوحاً(٥٢). مع وضع حرس عندها لحراستها، والحفاظ على أحذية المصلين، واهتموا كذلك بنظافة المصابيح به؛ إذ دأب الفراشون على تنظيفها، وتزويدها بالزيت والفتائل يومياً(٥٣).

ز - وداع المسافر والسلام عليه عند عودته:

من الأمور الدالة على ترابطهم الاجتماعي الخروج لوداع المسافر إلى خارج مكة، وكذلك ملاقاته عند عودته، وتهنئته بسلامة الوصول، وإقامة الولائم احتفالاً به، ولا يقتصر هذا الأمر على الرجال بل يشمل أيضاً النساء اللاتي يقصدن للسلام عليهن(٥٤).

---

(٤٨) الهدا: موضع بين مكة والطائف، وهي من قرى الطائف بها العديد من أشجار الفاكهة. ابن فهد، جار الله محمد بن عبدالعزيز بن عمر: حُسن القرى في أودية أم القرى، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٤٤.

(٤٩) أرض حسان: وسط وادي مر، به أشجار وحدائق تسقى بعين عذبة تجمع مياهها في بركة كبيرة توزع على المزارع عبر قنوات بلغ عددهن في القرن العاشر اثنتين وأربعين قناة. المصدر السابق، ص٥١-٥٥.

(٥٠) أرض خالد: بين الجموم والخضراء، يقال: إنها تنسب لخالد القسري، فيها أشجار وعين عذبة تسقى بساتينها عبر (٤٢) قناة. المصدر السابق، ص٥٥-٥٩.

(٥١) نخلة الشامية: أحد روافد مر الظهران، يمر به الآن طريق مكة الرياض، ويسمى السيل الكبير. جار الله: نيل المنى، ج١، ص٧٥، ج٢، ص٥٩٧، ٧٨٨، ٧٩٥؛ البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز، دار مكة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٩، ص٤٠-٤١.

(٥٢) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٨-٣٩، ١٩٤.

(٥٣) يوسف: الرحلة، ص٤٥، ٥٥.

(٥٤) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٧٩-٨٠، ٣٩٥، جار الله: نيل المنى، ج١، ص٩١، ٩٣، ١٥٤، ٢٤٣، ٤٧٥؛ ج٢، ص٧٩٥.

ح - التنزه بمنى وإقامة الولائم ببركة ماجن(٥٥):

امتلك أعيان مكة الأثرياء دوراً بمنى قاموا على عمارتها، فكانوا يقيمون الولائم فيها، واعتادوا الإقامة هناك مدة تصل إلى ثلاثة أيام، يتأنقون خلالها في تقديم المأكولات التي تحتوي على أفخر الأطعمة والحلوى، مثل: السكرية، والمربيات، والدجاج وغيرها. كما اعتادوا الخروج للتنزه عند بركة ماجن، وإقامة الولائم هناك، ومن ثم العودة إلى مكة بعد انقضاء النهار(٥٦).

ط - الصلاة فوق سطح الحرم عند امتلاء المسجد بالماء بعد الأمطار:

بما أن مكة تعد وادياً، فكثيراً ما تهاجمها السيول من جراء الأمطار الغزيرة، فيدخل السيل إلى داخل المسجد الحرام، وإذا كان كثيراً؛ فسرعان ما يمتلئ بالماء، فيعجزون عن الصلاة فيه، فعند ذلك ينتقلون لإقامة الصلوات على سطحه لحين تنظيفه، والذي يشترك فيه فئات أهل مكة كافة من أشراف وأعيان وعامة ومجاورين. أما إذا كان السيل خفيفاً اقتصر تنظيفه على الفراشين وحدهم(٥٧).

ي - الصلح بين المتخاصمين:

من العادات الحسنة التي تدل على ترابطهم الاجتماعي الوثيق أنه حينما يقع خصام بين شخصين يسعى الأعيان وأرباب الوظائف الدينية للصلح بينهما حتى يتم الوفاق، وعلامته سقي من حضر مجلس الصلح سكراً مذاباً(٥٨).

---

(٥٥) بركة ماجن: تقع في المسفلة، وهي آخر حد مكة من جهة الجنوب في ذلك الوقت، وهي أحد أحيائها الآن، وكان فيها بساتين تسقى بماء هذه البركة التي وصفت بالسعة والعمق والغزارة، وهي من برك مكة المكرمة القديمة. جارالله: حُسن القرى، ص٨، ١٠؛ الكردي: التاريخ القويم، ج١، ق٢، ص٢٦٧.

(٥٦) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٤٠، ٥٠٤؛ ج٢، ص٥٩٩-٦٠٠.

(٥٧) المصدر السابق، ج١، ص٣٢٨-٣٥٣.

(٥٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٦٥.

ك - إنشاء قصائد الهجاء:

عندما يعجز أهل مكة عن مجابهة الظالم أو الفاسد ممن كانوا يتولون الوظائف التي وجدت لخدمتهم وتسهيل أمورهم يعمد البعض لإنشاء قصائد هجاء فيهم، وتنشر بين الناس. ويكون لمن أراد الحق في الإضافة عليها ما شاء من الأبيات على نسقها، بحيث يصعب بعد ذلك نسبتها لشخص معين(٥٩).

٢ - العادات الدينية والعلمية

أ - تأديب الأولاد وتعليمهم:

درجوا على إرسال أولادهم لمعلمين ومؤدبين يقومون على ذلك، فيلقنونهم مبادئ الحساب والقراءة، وخصص لهذه المهمة أناس قاموا بها خير قيام اتخذوا جزءاً من المسجد الحرام لهذا الغرض(٦٠).

ب - عرض الأولاد على العلماء للتأكد من حفظهم وأخذ الإجازات للبنات الصغار:

لشدة اهتمامهم بالناحية العلمية حرصوا على عرض أولادهم على الشيوخ والعلماء بعد تلقيهم قسطاً من العلوم للتأكد من حفظهم. كما وجد من أهلها من يأخذ الإجازات لبناته الصغار، حينما تعقد المجالس العلمية ويحضرونهن معهم لتنال الإجازة عند ذكرها(٦١).

ج - زيارة مسجد ابن عباس بالطائف:

لاقتران الطائف مع مكة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٦٢). وفي هذا تشريف وفخر للطائف أن تقرن مع بيته الكريم، ولمكانة ابن عباس رضي الله عنهما العلمية،

---

(٥٩) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٣٦٦.

(٦٠) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٣٨، ٢٤٠.

(٦١) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٠٣؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص٣٠٨.

(٦٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

وصلته بالرسول ﷺ، ووجود الأماكن التاريخية المأثورة التي قيل: إنه عليه السلام مر عليها أو مكث بها(٦٣)، اعتادوا زيارة مسجد ابن عباس رضي الله عنهما برفقة العلماء، بحيث تكون بمثابة رحلة دينية علمية، تتم خلالها قراءة أجزاء من كتب الحديث التي تتناول فضائل الطائف، وتتدارس سيرة الرسول ﷺ التي لها صلة بالأماكن المأثورة من كتب السير، وتأخذ الإجازات العلمية على ذلك(٦٤).

د - زيارة جبل حراء:

الذهاب لجبل حراء من جملة العادات الدينية والعلمية، وتتم برفقة العلماء، ويشرعون في تدارس سيرة الرسول ﷺ هناك(٦٥).

هـ - إقامة دروس العلم يوم عرفة:

منذ عهد الصحابة والتابعين كانت فترة الحج ليست قصراً على أداء الفريضة، وإنما للقاء العلماء المشهورين، وشهود حلقاتهم العلمية وتقويمهم، والفخر بتلقيهم عن المشاهير منهم التي تسجل في إجازات يحملونها معهم(٦٦). فمناسبة الحج تجمع بذلك بين أداء الفريضة والالتقاء بالعلماء القادمين من الأقطار الإسلامية الأخرى، فيحصل بذلك نشر العلم والاستزادة منه، إذ كان ارتباط علماء مكة بنظائرهم في البلدان الأخرى كبيراً، فخص يوم عرفة لإقامة دروس العلم، وأخذ الإجازات لذلك(٦٧)، فوجود العديد من علماء العالم الإسلامي في بقعة واحدة، وهو أمر لا يتكرر إلا مرة كل سنة؛ لذا يسارع طلبة العلم لنيل الإجازات في تلك البقعة المباركة.

---

(٦٣) جار الله: حُسن القرى، ص٣٧-٤٢.

(٦٤) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٤٠١-٤٠٢؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٤٩؛ جار الله: حُسن القرى، ص٣٧-٤٢.

(٦٥) جار الله: نيل المُنى، ج١، ص ٢١٠.

(٦٦) طراوة، حجازي علي: دور الحج في إثراء الحركة العلمية في الحرمين الشريفين في عهد الراشدين والأمويين، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢١-٢٧.

(٦٧) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٣٠؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص ٢٩٨.

و - القنوت عند الإحساس بالخطر أو قلة الأقوات وقراءة سورة الأنعام:

القنوت سنة فعلها الرسول ﷺ عندما أرسل القراء إلى قوم من المشركين، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان الرسول ﷺ لا يقنت إلا إذا دعا لقوم أو دعا على قوم. ويفعله إذا ألمت نازلة بالمسلمين أو خيف من وقوعها(٦٨). لذا كان أهل مكة يقنتون في الصلاة، ويتضرعون إلى الله تعالى عندما تنزل بهم شدة في الأسعار، وهي كثيراً ما كانت تحدث، ويقنتون أيضاً عند إحساسهم بالخوف من هجوم الأعداء عليهم(٦٩).

كما اعتادت فئة من أهل مكة تخصصت في قراءة سورة الأنعام داخل الحطيم، عندما تقل الأقوات، أو يتأخر وصول المراكب، وتقرأ أيضاً عندما يخرج جند السلطان العثماني للغزو، ويتبع قراءتها الدعاء، والتوسل إلى الله تعالى أن ينصره في حربه، وتقرأ كذلك طلباً لنصر سلطان الهند على أعدائه، فقد كان ارتباط مكة بالهند في تلك الفترة كبيراً.

كما اعتادوا قراءة صحيح البخاري، وبعد ختمه يتوجهون بالدعاء إلى الله تعالى أن يزيل الشدة في الأسعار، وينعم عليهم بتوفر الأقوات. وفي هذا المجال أيضاً يخرج إمام المقام الشافعي بجمع من الرجال وأولاد الكتاتيب، ويقف بهم جميعاً أمام باب الكعبة المشرفة واضعين المصاحف الشريفة على رؤوسهم، ويبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يفرج عنهم ما هم فيه من ضيق(٧٠).

---

(٦٨) ابن حجر: فتح الباري، ج٢، ص٤٩٠-٤٩١.

(٦٩) جار الله: نيل المُنى، ج١، ص١٠٥، ١١٥، ٢٣٦-٢٣٧، كما حدث في سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، عندما أشيع وصول البرتغاليين إلى جدة، جار الله: حُسن القرى، ص ٣٥.

(٧٠) جار الله: نيل المُنى، ج١، ص١٠٥، ٢٦٥؛ ج٢، ص٥٥٢، ٥٧١، ٦٠١-٦٠٢، ٦٠٧، ٧٥٠.

٣ - العادات الاقتصادية

أ - الرحيل عن مكة طلباً للرزق:

كانت أكفان أهل مكة تأتيهم من مصر لشدة فقرهم وحاجتهم

إذا ألمت بأهل مكة نائبة الغلاء وقلة الأقوات، وهي كثيرة الحدوث في تلك الفترة، حتى إنه كانت تأتيهم أكفانهم من مصر لشدة فقرهم وحاجتهم. وهذه الضائقات إما أن تكون بسبب قلة الأمطار من جهة وتأخر وصول الصدقات أو نقصها من جهة أخرى. أو تأخر وصول المراكب المحملة بالأقوات سواء من جهة مصر أو الهند. فنرى أسراً كثيرة من أهلها يخرجون إما إلى الوديان حول مكة، وينزلون على عربانها، بحيث تكاد تخلو مكة إلا من قلة من السكان، أو السفر خارج قطر الحجاز إلى الأقطار الإسلامية الأخرى كمصر والهند مثلاً طلباً للرزق(٧١).

ب - تربية الخيول:

لجودة وسمعة الخيول العربية الأصيلة وجد من يقوم بهذه التجارة، فحكام مصر دأبوا على الاستثمار هناك، إذ لديهم وكلاء يهتمون بذلك، ويرسلون إليهم الأموال بعد بيع تلك الخيول(٧٢).

وقد احتفظت منطقة الحجاز بميزة تربية الخيول العربية بعد ذلك حتى أصبحت ضمن اهتمامات الرحالة الغربيين الذين زاروا المنطقة(٧٣).

ج - الصدقات الواردة لأهل مكة:

كانت هذه الصدقات المرسلة لهم من قبل مصر والهند وبلاد الشام والدولة العثمانية، تمثل لهم جزءاً كبيراً من قوام معيشتهم،

---

(٧١) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٩٥، ١١٧؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص١١٤، ١٥٩، ٢٢٢.

(٧٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٩٥.

(٧٣) بيرتون، رتشارد (Richard- burton): رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ج١، ص١٧.

لدرجة أنهم اعتمدوا عليها اعتماداً كبيراً أدى إلى عدم تفكيرهم بأي عمل سوى انتظار هذه الصدقات، والتي لها مراسيم خاصة لتوزيعها، إذ تحصر أسماء سكان مكة، وترسل في قوائم إلى مرسلي هذه الصدقات، فإذا أتت وزعت عليهم تبعاً لذلك(٧٤).

د - كثرة الشائعات:

تكثر الشائعات في أوقات قلة الأقوات أو عند قرب وصول المراسيم؛ لتغيير الخطباء والقضاة والأئمة، وكذلك عند تأخر المراكب القادمة من الهند. وعادة ما تكون مثل هذه الشائعات غير صحيحة، فيحدث الاضطراب، وتزيد أسعار الأقوات بسببها(٧٥).

٤ - العادات السياسية

أ - الاحتفال بمقدم كبار الشخصيات:

كثيراً ما يقدم لمكة شخصيات سياسية ذات شأن كبير من الأقطار الإسلامية، سواء من الهند أو مصر أو من قبيل السلطان العثماني أو نائب جدة. وبمجرد وصوله يتقدم أحد القضاة على مذهب الضيف القادم، ويتولى أمر طوافه وتعريفه بمناسك العمرة، وتقام الولائم احتفاءً به، وتزغرد النساء عند قدومه إظهاراً للفرح بمقدمه، ويجتمع الأعيان للسلام عليه(٧٦).

ب - النداء على المظالم:

لكثرة ظلم الجنود الأتراك لأهل مكة اعتاد باش مكة إرسال المنادين في شوارعها للنداء على من لديه مظلمة بالتقدم للشكوى؛

---

(٧٤) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٤٤، ٣٣٩، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٨١؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص٨٢، ١٦٢.

(٧٥) جار الله: نيل المنى، ج١، ص ١١٧.

(٧٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٢٨؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص١٩٢، ٢٤٠، ٢٧٦-٢٧٧، ٤٩٥، ٥٤٥، ج٢، ص٦٠٥، ٧٣٧.

ليعمل على إزالتها، وغالباً لا يتقدم أحد لخوفهم من الظالمين، أو لعودة الأمر على ما كان عليه بعد فترة(٧٧).

ج - التحصن بالمنازل وقت الحرب:

إن أحداث القرن العاشر بمكة لا تكاد تخلو من حدوث اشتباكات بين جنود الأتراك وأعوان الشريف، فعندما يحدث ذلك، يتحصن أهلها بمنازلهم، ويخلو المسجد الحرام.

أما إذا اشتد الخطر، وقامت اشتباكات عنيفة تقفل أبواب المسجد الحرام حتى لا يصبح ساحة للقتال، وتصبح المنازل والأربطة القريبة من المسجد الحرام أماكن للقتال والرمي، ويشترك العامة برمي الأحجار على الجنود الأتراك لاستفحال أذاهم وظلمهم. أما إذا حصل خصام بين الشريف وباش مكة واصطلحا تقوم النساء بالزغردة علامة انتهاء الخطر وإظهاراً للفرح بانفراج الغمة(٧٨).

د - الاحتفال بإنهاء المنافرة بين الشريف وقرابته:

لا يكاد يخلو مؤلف ألف عن مكة في تلك الفترة إلا ويفرد الصفحات الكثيرة لعادة خروج الأشراف على شريف مكة، وما يصاحب ذلك ويعقبه من صعاب على أهل مكة، أما سبب خروجهم فهو إما الطمع في الإمارة أو لإنقاص الشريف لمخصصاتهم. وإذا ما تم الصلح بينهم ينفخ في الأبواق علامة البشارة بذلك، ويمشي بعدها الشريف في شوارع مكة وأمامه المغنون إلى أن يوصلوه إلى منزله، بعد دخوله المسجد الحرام للطواف شكراً لله، وأثناء طوافه يدعو له رئيس المؤذنين فوق قبة زمزم(٧٩).

---

(٧٧) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص ١٦٠.

(٧٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٩٦-٩٨، ١٠٨؛ العصامي، عبدالملك بن حسين: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، المكتبة السلفية، القاهرة، د. ت، ج٤، ص ٤٨٣.

(٧٩) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص ٦٢.

هـ - الاحتفال بمقدم الشريف وانتصاراته:

وعندما يعزم الشريف على الخروج لتأديب العربان إذا كثر فسادهم وأذاهم، يبدأ بالطواف قبل خروجه، ويقوم رئيس المؤذنين فوق قبة زمزم بالدعاء له عقب كل شوط بأن ينصره الله، ويظفره بأعدائه وأعدائهم، ويؤمن الحاضرون على دعائه(٨٠).

عندما يقدم الشريف إلى مكة يقابل من أهلها بالرقص والدق على الطبل، ويحضر الجميع للسلام عليه. وتزين مكة قبلها وعند وصول أنباء انتصاراته في حروبه ضد العربان، بحيث تستمر هذه الزينة سبعة أيام مع استمرار العرضة، واللعب أمام منزل الشريف، وإذا كان الشريف حاضراً يدعى لتلك العرضة أهل مكة وجدة والأودية للمشاركة فيها. أما الزينة فيتكلف فيها الأهالي سواء عند انتصار الشريف في حروبه أو لانتصار جيوش السلطان العثماني. ربما يتجاوز تكلفة ذلك حداً لا يطيقونه في كثير من الأحيان.

ولأن ضرر العربان يمتد ليشمل أهل مكة والتجار نجد أن التجار والمقتدرين يمدون الشريف بالمال لشراء السلاح الذي يعينه في حروبه تلك(٨١).

و - اسقبال أصحاب المناصب:

يستقبل أهل مكة التجار القادمين من جدة بالسلام عليهم، وبعدها يجتمعون بالمسجد الحرام، وتزغرد النساء إظهاراً للفرح بعودتهم، فمعنى عودتهم تدفق السلع والمؤن على مكة، وكذلك يفعلون عند عودة أصحاب المناصب من مقابلة نائب جدة، ولا سيما إذا أُنعم عليهم بمراسيم، فيتم زفه في موكب يطوف شوارع مكة حتى يصل إلى منزله(٨٢).

---

(٨٠) جار الله: نيل المنى، ج٢، ص ٦٦٣.

(٨١) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٠٨، ٢٧٤، ٣١٧، ٤٤٩، جار الله: نيل المنى، ج١، ص١٩٥، ٢٦٨، ٢٨١، ٢٩٠، ٣٩١، ٤٠٢، العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص ٢٨٤.

(٨٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢١٨، ٢٢٣.

ز - الاحتفال بوصول الخلع للشريف في غير موسم الحج:

عند وصول الخلع إلى الشريف يلبسها في الحطيم مقر الإعلان المعتاد في ذلك الوقت بحضور القضاة والفقهاء، ويقرأ المرسوم الخاص به، ويطوف بعدها لابساً خلعته، ويدعى له على جاري العادة فوق قبة زمزم من قبل رئيس المؤذنين أو أحد أبنائه، وتقام عرضة بعدها احتفالاً بالقادم حامل المراسيم، ويقدم له عشاء، ويكون عبارة عن الفتوت وحلوى وموز وجبن مقلي(٨٣).

ح - العمرة نيابة عن سلطاني مصر والهند:

يرسل السلطانان مخصصات مالية كل عام لمن يقوم بالعمرة نيابة عنهما(٨٤)؛ لعدم تمكنهما من القيام بها بنفسيهما.

الخاتمة

عاش أهل مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري حياة اجتماعية مفعمة بعادات وسلوكيات اتسمت بالسمة الاحتفالية طوال أشهر السنة، فيما عدا أيام موسم الحج. حتى إنهم أضفوا شيئاً من البهجة الاحتفالية على ما كان من هذه العادات دينياً أو علمياً.

كما أن العديد من عاداتهم ارتبط في أساسها بتوجيه قرآني أو حديث شريف، مثل: الثناء على الميت، والختم على بيته بعد وفاته تحرزاً من فقد ممتلكات الورثة الغائبين. أو لوجود الأماكن التاريخية، أو مناطق المناسك، أو البقع المقدسة، إلا أنهم بالغوا كثيراً فيما كانوا يقومون به؛ فحددوا أوقاتاً معينة للاحتفال بهذه الأماكن، ومورست خلالها بعض الممارسات التي لا تندرج تحت تعاليم الشريعة الإسلامية.

---

(٨٣) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٣٠٩، ٢٢٢.

(٨٤) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٣٢٩؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص ١٥٦.

ونلحظ لدى أهل مكة ولع بالاحتفالات، وإقامة الولائم التي تفننوا في تنوع مأكولاتهم حتى وهم في أشد حالاتهم قحطاً، وقلة في الأقوات والأرزاق، فحتى هذا السلوك لا يخلو من رغبتهم في مواساة الفقراء، إذ يقسم عليهم فيما بعد فائض من هذه الأطعمة التي تعد سلفاً بكميات لهذا الغرض.

كما نلمس تكاتفهم الاجتماعي عن طريق الإعانات المالية التي تبذل لأصحاب المناسبات في هذه الاحتفالات، كما أن تلبية الدعوة من جميع طوائف المجتمع يعبر عن تكاتفهم وتراحمهم فيما بينهم.

ولأن قوام معيشة أهل مكة يعتمد على موسم الحج، وما يحصل لهم من الصدقات الواردة من الهند ومصر وبلاد الشام، والدولة العثمانية. فقد كفوا مؤونة التفكير والبحث لتحصيل أرزاقهم طوال السنة، واتجهوا لإشاعة البهجة في حياتهم التي افتقدوا فيها الأمن في فترات عدة، علاوة على شظف العيش، فكأنما ما يمارسونه نوع من التعويض غالوا فيه كثيراً، فهم في مجمل حياتهم عاشوا بين نقيضين استطاعوا التوفيق بينهما.

كما نجد لأهل مكة عادات سواء ما كان منها في المأكل أو السلوك منها ما هو حسن والبعض سيئ استمر لقرون عدة، وأخرى اندثرت وحلت محلها عادات أخرى تكون أشد إمتاعاً وإيناساً، ولعل المتتبع لهذا الأمر يجده خلال بحثه وتتبعه.

استطاع المكيون في القرون السابقة وخاصة القرن العاشر الهجري جعل المسجد الحرام محور حياتهم الاجتماعية إلى جانب دوره الديني الذي استفادوا منه كثيراً، فقاموا مثلاً بعقد قران أولادهم وبناتهم فيه، وأبرزوا مكانته السياسية فكان يتم الإعلان عن المراسيم ومستجدات الأحداث في الحطيم وفوق قبة زمزم، وكانت تقسم الإعانات الاقتصادية والمالية فيه أيضاً، إضافة إلى دور

المسجد الحرام العلمي إذ كانت تعقد فيه مجالس العلم، وتلقى الدروس من قبل نخبة من العلماء الأفاضل من أهلها أو المجاورين بها على حد سواء. وبهذا وظف المسجد الحرام لخدمة نواحي حياة أهل مكة كافة فكان بحق قوام حياتهم ومحورها.